الفصل الثاني والعشرون
السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك

المبحث الأول: سرية الطُّفَيل بن عمرو إلى ذِي الكَفَّين

عندما أراد الرسول ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفـين: صنم عمرو بن حُمَمَة الدوسي ليهدمه، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف. فخـرج سريعًا إلى قومه، فهدم ذا الكفـين، وحرقـه وانحـدر معـه مـن قومـه أربعمائـة، فوافـوا النبـي ﷺ بالطـائف بعـد مقدمـه إليهـا بأربعـة أيـام، ومعـه دبابـة ومنجنيـق. [ابن سعد؛ الواقدي].

المبحث الثاني: إسلام كَعب بن زُهير عند منصرف الرسول ﷺ من الطائف

كان كعب بن زهير بن أبي سُلْمَى المُزَنيّ من الشعراء المخضـرمين المرموقين، وأبـوه زهير بن أبي سلمى صاحب إحدى المعلقات السبع المعروفة. وكان ممن يهجو النبي ﷺ ويؤذيه. وروى قصته وقصّة أخيـه بُجَـير بـن إسـحاق والبيهقـي [في الـدلائل]، بإسـناد متصل إليه، وفيها أنه خرج مع أخيه بُجَير حتى أتيا أَبْرَقَ العَزَّافِ، طلب بجير من أخيه كعب أن يبقى في هذا المكان حتى يأتي محمد ﷺ ويسمع ما يقول، فعنـدما جـاء عـرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأسلم، فبلغ ذلك كعبًا فأنشد قائلًا:

ألا إبلِغَـا عنـي بجـيرًا رسـالة	عـلى أي شيء غـير ذلـك دَلَّكَـا
عـلى خُلُـقٍ لم أَلْـفِ أُمَّـا ولا أَبـًا	عليـه ولم تـدرك عليـه أَخـًا لَكـا
سـقاك أبـو بكـرَ بكـأس رَوِيَّـةٍ	وأنهلـك المـأمون منهـا وعَلَّكَـا

فلما بلغت الأبيات رسول الله ﷺ أهدر دمه، فكتب إليه أخوه بجير يخبره بذلك وينصحه بالنجاء، ثم كتب إليه بعد ذلك وأعلمه أن رسول الله ﷺ لا يأتيه أحد مسلمًا إلا قبل ذلك منه، وطلب منه أن يُسلم ويُقبل على النبي ﷺ، فأسلم، ونظم قصيدته التي يمتدح فيها رسول الله ﷺ وقدم على الرسول ﷺ فأمَّنه، فأنشده قصيدته التي مطلعها:

بَانَتْ سُعاد فقلبي اليوم مَتبُولُ — مُتَـيَّمٌ عنـدها لم يُفـد مَكْبُـول

[نيل الأوطار؛ ابن إسحاق]

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه [البيهقي الدلائل] أن كعب بن زهير أنشد النبي ﷺ قصيدته (بانت سعاد) في المسجد، فلما بلغ قوله:

إن الرسـولَ لَنُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بـه — مُهَنَّـدٌ مـن سـيوف الله مسـلول

في فتيـة مـن قـريش قـال قـائلهم — بـبطن مكـة لمـا أسـلموا زُولـوا

أشار رسول الله ﷺ بكمه إلى الخلق ليأتوا فيسمعوا منه.

قال الساعاتي: (وفي المواهب اللدنية، قال أبو بكر بن الأنباري، إنه لما وصل إلى قوله:

إن الرسـولَ لَنُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بـه — مُهَنَّـدٌ مـن سـيوف الله مسـلول

رمى عليه النبي بردة كانت عليه، وإن معاوية رضي الله عنه بذل فيها عشرة آلاف، فقال كعب: «ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدًا». فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته عشرين ألفًا، فأخذها منهم، قال: «وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم»).

[انظر: العقبة عند الحاكم؛ ابن إسحاق؛ الذهبي: المغازي].

المبحث الثالث: المصدقون

شرع رسول الله ﷺ في بعث المصَّدِّقين إلى المناطق المختلفة في مطلع المحرم من العام التاسع الهجري. فبعث: بُرَيْدَة بن الحُصَيْب إلى أسلم وَغِفَار، ويقال كعب بن مالك،

وعَبَّاد بن بِشر الأشهلي إلى سُلَيم ومُزَيْنَة، ورافع بن مَكِيْث إلى جُهَيْنَة، وعمرو ابن العاص إلى فَزارة، والضَّحَّاك بن سُفيان الكِلابي إلى بني كِلاب، وبُسْر بن سفيان الكَعْبي إلى بني كعب، ويقال: نُعَيم بن عبد الله النَّحام العَدَوي، وابن اللُّتْبِيَّة الأَزْدي إلى بني ذُبيان، ورجلًا من بني سعد بن هُذَيْم إليهم [الواقدي؛ ابن سعد]، والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لَبِيد إلى حَضْرَمَوت، وعَدِيّ بن حاتم الطائي إلى طيء وأسد، ومالك بن نُوَيرة إلى بني حَنْظَلَة، والزِّبرِقَان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد، كل منهما على ناحية، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعلي ابن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم [ابن إسحاق].

المبحث الرابع: سرية عبد الله بن حُذَافَة السَهْمِيّ

روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ استعمل رجلًا من الأنصار على سرية وأمرهم أن يطيعوه. فأغضبوه في شيء فقال: اجمعوا لي حطبًا، فجمعوه، وأمرهم فأوقدوه، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فسكن غضبه، وطفئت النار. فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا له ذلك فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف».

والراجح عندي أن أمير هذه السرية هو عبد الله بن حذافة السهمي. فقد روى الشيخان وبقية الجماعة، أن الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[النساء:٥٩] نزلت فيه عندما أرسله الرسول ﷺ في سرية. وصرح به في رواية أحمد وابن ماجه [صحيح]. وذكر القصة بمثل مضمون رواية البخاري في كتاب الأحكام، ومسلم في كتاب الإمارة.

أما الرواية المرجوحة فهي التي رواها ابن كثير [التفسير] والطبري [التفسـير]، وفيهـا أنها نزلت في خالد بن الوليد عندما بعثه الرسـول ﷺ في سريـة فيهـا عـمار بـن يـاسر، فعندما سمع بهم العدو هرب إلا رجـلًا واحـدًا، جـاء إلى معسكر المسـلمين في جنح الليل، وسأل عن عمار بن ياسر، فدلوه عليه، فأخبره أنه مسلم، واستفتاه إن كـان ذلـك ينفع وإلا هرب مع قومه، فطلب منه عمار البقاء، وفي الصباح أغـار خالـد عـلى مكـان العدو فلم يجد إلا هذا الرجل، فأخذه وماله، فاعترض عمار على هذا الإجـراء، فتلاحـا واستبًّا، ولام الرسول ﷺ خالدًا، فاعتذر إلى عمار، فـأنزل الله تعـالى الآيـة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية.

وخلاصة رأيهما أن الآيـة عامـة في جميـع أولي الأمـر مـن الأمـراء والعلماء. وقـد استشكل العلماء وصف أمير هذه السرية بأنه أنصاري، لأن ابن حذافة مهاجري، ولـذا قال ابن حجر [في الفتح]: (ويحتمل الحمل على المعنى الأعم: أي أنه نصر رسول الله ﷺ في الجملة). وجنح إلى تعـدد القصـة لاخـتلاف سـياقي القصـة واسـم أميرهـا. وأمـا ابن الجوزي [كما ذكر ابن حجر] فقال: (قومه من الأنصار، وهم من بعض الـرواة، وإنـما هو سهمي). ولعلي أرجح تعليل ابن الجوزي.

وذكر الواقدي وابن سعد في سببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من الحبشـة تـراءاهم أهل جُدَّة، فبعث إليهم عَلْقَمَة بن مُجُزِّز، في ربيـع الآخـر مـن سـنة تسع، في ثلاثمئـة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، فلما خاض البحر إليهم هربوا، فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم، فأمَّر عبد الله بن حذافة على من تعجل.

وذكر ابن إسحاق في سببها أن وقاص بن مجزز كان قـد قتـل يـوم ذي قـرد، فـأراد علقمة بن مجزز أن يأخذ بثأره، فأرسله رسول الله ﷺ في هذه السـرية. ويمكـن الجمـع بين الأمرين. [ابن حجر: الفتح].

المبحث السابع: من فوائد هذا المقطع

إن الحكم في حالة الغضب يُنَفَّذ منه ما لا يخالف الشرع، وإن الأمر المطلق لا يعم بالأحوال، لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب، وفي حال الأمر بمعصية، فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه في غير معصية.

المبحث الثامن: سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلْس وإسلام عَدِيٍّ ابن حاتم الطائي

في ربيع الآخر من العام التاسع الهجري أرسل الرسول ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل إلى الفلس - صنم طيء ليهدمه -، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائي مع الفجر، فهدموا الفلس وخربوه وأخذوا ما به، وملؤوا أيديهم من السبي والنعم والشاء. وهرب عدي إلى الشام. [ابن سعد؛ الواقدي].

روى أحمد [المسند، حسن] والترمذي [حسن] من حديث سماك بن حرب بإسناد إلى عدي بن حاتم أنه عندما جاءت خيل رسول الله ﷺ كان هو بعَقْرُب، فأخذوا عمته وناسًا، فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله نأى الوافد وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمُنَّ عليَّ مَنَّ الله عليك، فسألها عن وافدها، فقالت: عدي بن حاتم، فقال: «الذي فر من الله ورسوله؟»، فمَنَّ عليها رسول الله ﷺ وجهزها فأتت ابن أخيها عديًا وهو هارب بالشام، وأخبرته خبر الرسول ﷺ وطلبت منه أن يأتي الرسول ﷺ راغبًا أو راهبًا، فأتاه فأسلم، فسُرَّ بذلك النبي ﷺ. [وروى القصة بتفاصيل أكثر ابن إسحاق، معلقة].

الفصل الثالث والعشرون
غزوة تبوك (أو العُسْرَة)

أصل التسمية (تبوك):

روى مسلم، بسنده إلى معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي**». فهذا رسول الله ﷺ سماها تبوكًا قبل أن يأتيها أحد، فلا وجه لقول غير هذا، كما قال أكرم السندي: [الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك].

التسمية بغزوة العسرة:

جاءت تسميتها بغزوة جيش العسرة من الحديث الـذي رواه البخـاري، بسـنده إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُمْلَان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...»، وعنون البخـاري لهـذه الغـزوة بقوله: «باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة». وحديث الأشعري واضح الدلالـة عـلى ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من العسر الشديد في المال والزاد والركائب.

وروى مسلم، بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، ما وقع للمسلمين في طريق هذه الغـزوة من نقص في الزاد حتى مصوا النوى وشربـوا عليـه المـاء. وفي روايـة أخـرى لـه أنهـم استأذنوا الرسول ﷺ في نحر مطاياهم ليأكلوا.

ودل على هذه الضائقة الاقتصادية الآية الكريمة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[التوبة:١١٧] [انظر: تفسيرها عند الطبري].

تاريخ الغزوة:

خرج الرسول ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العـام التاسـع الهجـري [ابـن إسـحاق، ابن سعد]، بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر. [الفتح].

سبب الغزوة:

ذكر الواقدي وابن سعد أن هرقل جمع جموعًا من الروم وقبائل العرب المواليـة لهـا، فعلم بهـم الرسـول ﷺ فخـرج إلـيهم. وذكـر اليعقـوبي أن سـببها أخـذ الثـأر لجعفـر ابن أبي طالب رضي الله عنه.

وروى ابن عساكر في سبب الخروج إلى تبوك أن اليهود أتوا الرسول ﷺ وقالوا لـه إن كنت صادقًا بأنك نبي فـالحق بالشـام فإنهـا أرض المحشـر والأنبيـاء، تغريـرًا بالمسـلمين ليخرجوهم من المدينة، ويعرضوهم لخطر المواجهة مع الروم، وعندما وصل تبوكًا نزلـت عليـه آيـات مـن سـورة بنـي إسرائيـل، منهـا ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾[الإسراء:٧٦]، تفضح موقف اليهود، وأمره الله بالرجوع إلى المدينة حيث الممات والمحشر.

وقال ابن كثير [البداية]: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾[التوبة:١٢٣].

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب. إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة، بما فـيهم أهـل الكتـاب، الـذين وقفـوا في طريـق الدعوة، وظهر تحرشهم بالمسلمين، كما روى أهل السير والمغازي.

الإنفاق في هذه الغزوة:

حث الرسول ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغـزوة لبعـدها وكثـرة المشـتركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله ﷻ. فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عـثمان ابن عفان أكثر المنفقين. ووردت في ذلك عدة أحاديث وآثار، منها:

روى البخاري: وقال النبي ﷺ: «... **من جهز جيش العسرة فله الجنة**»، فجهزه عثمان. وروى من حديث أبي عبد الرحمن السُّـلَمِيِّ أن عـثمان رضي الله عنه قـال لمحاصريـه أيـام الـدار: «ألستم تعلمون أنه قال: من جهز العسرة فله الجنة؟ فجهزته»، فصـدَّقوه بـما قـال، وروى من هذا الطريق وبنحوه الترمذي، ولفظه: «أذكركم بالله، هل تعلمـون أن رسـول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسـرون، فجهـزت ذلـك الجيش؟ قالوا: نعم...». ومن طريق آخر له من حديث ثُمامة بـن حَـزْنٍ: «...أنشـدكم الله وبالإِسلام، هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللهم نعم».

وبلغت هذه المشاركة من عثمان ألف دينار. وعندما نثرها في حجر النبـي ﷺ أخـذ يقلبها ويقول مرارًا: «**ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم**». [نفسه].

وقيل إن عثمان رضي الله عنه قدم أشياء عينية كالإِبل وعدتها، وأنه تصـدق بثلاثمئـة بعـير بأحلاسها وأقتابها [والأحلاس جمع حلس: وهو مايوضع تحت السـرج، والأقتـاب: جمـع قتـب: وهو الرحل] [الحاكم]، وليس هناك ما يمنع ذلك، ما دام قد ثبت أن الصحابة قد أقروا له بتجهيز جيش العسرة، كما هو ظاهر الأحاديث والآثار التي ذكرناها.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهـم، وهـي نصـف أموالـه، لتجهيـز جيش العسرة [تفسير الطبري]، وفي أنه تصدق بأربعة آلاف دينار، وهي أيضًا نصف ماله [نفسه]. وأن عمر تصدق بمائة أوقية. [ابن عساكر].

وتصدق العباس وطلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة وعاصم بن عدي، كما ذكر الواقدي.

وتصدقت النساء بكل ما قدرن عليه من الأسورة والخلاخل والختم والأقراط، كنّ يضعنه على ثوب مبسوط بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها. [الواقدي].

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين. فقد جاء أبو عُقَيل بنصف صاع من تمر، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: «إن الله لغني عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياء» فنزلت الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾[التوبة:٧٩] [البخاري].

وجاء أبو خَيثَمَة الأنصاري بصاع تمر فلمزوه أيضًا [مسلم]، ولعله هو المعني أيضًا في حديث الطبري [التفسير] في إنفاق ابن عوف، وفيه أن رجلًا من الأنصار قال: «... وإن عندي صاعين من تمر: صاعًا لربي، وصاعًا لعيالي»، فلمزه المنافقون، وقالوا: «ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء»، وقالوا: «أو لم يكن الله غنيًا عن صاع هذا؟» فأنزل الله الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وواضح من هذا أنهم يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء.

وروي أن عُلْبَة بن زيد بن حارثة عندما لم يجد ما يتصدق به، جاء إلى الرسول ﷺ فقال: «اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدق بِعِرْضِي على من ناله من خلقك»، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى أين المتصدق بعرضه البارحة، فقام علبة، فقال الرسول ﷺ: «**قد قُبِلَتْ صَدَقَتُكَ**». [الإصابة - وعلبة المذكور ليس من ولد زيد مولى النبي ﷺ].

لقد كان علبة بن زيد [الحارثي الأنصـاري] واحدًا من سبعة رجـال مـن المـؤمنين عرفـوا بـ(بالبِكَّائِيْن)، أتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه ما يخرجون عليه معه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون. [ابن إسحاق].

وأرسل جماعة من الأشعريين أبا موسى الأشعري إلى الرسول ﷺ يطلبون منـه مـا يركبونه، فكان في لحظة غضب، فلم يحصل لهم منه على شيء، فعاد إليهم حزينًا. وبعـد قليل أرسل الرسول ﷺ بلالًا إلى أبي موسى، فجاءه، فأعطاه سـتة أبعـرة ابتـاعهن مـن سعد ليركبها مع أصحابه الأشعريين [البخاري]، وفي رواية أنه أعطاهم خمس ذَوْد عندما أُتيَ بِنَهْبِ إبل. [نفسه].

وذكرت بعض الروايات أنه نزل في البكائين والأَشْعَرِيِّين قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩١-٩٢] [تفسير الطبري].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد الرسول ﷺ، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبـين القيـام بواجباتـه، وكـان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلـوبهم مـع المجاهدين، وهم الذين عناهم الرسول ﷺ عندما قـال: «**إن بالمدينـة أقوامًـا مـا سرتـم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: وهـم بالمدينة حبسهم العذر**». [البخاري].

موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلم الرسول ﷺ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾[التوبة:٨١] [ابن إسحاق، تفسير الطبري والشوكاني؛ الدر المنثور].

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم - وهو في جهازه لتبوك - لِلجَدِّ بن قَيْس: «**يا جَدُّ! هل لك العام في جِلَادِ بني الأَصْفَر؟**» فقال: «يا رسول الله أَوَ تَأْذَنُ لي ولا تفتني؟ فو الله لقد عَرَفَ قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْبًا بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر»، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «**قد أذنت لك**»، ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[التوبة:٤٩] [ابن إسحاق، الطبري في التفسير؛ الإصابة بأسانيد ضعيفة].

وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدين أعذارًا كاذبة، ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[التوبة:٤٣] [الطبري: التفسير، من مرسل مجاهد بسند صحيح].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهودي يثبطون أناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم [ابن هشام].

ووصلت بهم الجرأة على الله ورسوله أن يبنوا مسجدًا قُبيل غزوة تبوك ليجتمعوا فيه ويديروا حلقات تآمرهم على المسلمين، ويأملوا في مجيء أبي عامر الفاسق من عند الروم بجيش يغزو المدينة. وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد الرسول ﷺ للصلاة فيه، وطلبوا من الرسول

ﷺ أن يصلي فيه خداعًا للناس، ولكن الله فضح حقيقة نواياهم عندما أنزل في هذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾[التوبة:١٠٧-١٠٨] [الطبري: التفسير، صحيح]. فامتنع الرسول ﷺ عن الصلاة فيه، ثم أحرقه عندما عاد من تبوك ومنعه الله من الصلاة على أمواتهم بعد أن صلى على عبد الله بن أبي بن سلول عقب عودته من تبوك، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾[التوبة:٨٤] [متفق عليه].

وقد تخلف منه جماعة كما ثبت في حديث كعب بن مالك في قوله: «فكنت إذا خرجت في الناس... أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا بنفاق أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء...». [متفق عليه].

وخرج بعضهم مع الرسول ﷺ لعلهم يتحينون الفرص للتخذيل، كما سترى.

لقد استنفر الرسول ﷺ المسلمين للخروج في هذه الغزوة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾[التوبة:٣٨]، وكان تثاقلهم بسبب مجيء وقت جني التمر وطيب ثمره واشتهاء الظل لشدة الحر [الطبري: التفسير، من مرسل مجاهد]، وبعد المسافة ومشقة السفر، كما ذكرت الآية: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢] [الطبري: التفسير، من مرسل قتادة، حسن].

وتخلف عن الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليل من الصحابة من أهـل الأعذار، وثلاثة ممن لم يكن لهم عذر عن الجهاد، وسيأتي ذكرهم.

موقف المؤمنين من الخروج إلى تبوك:

عندما كشف الرسول ﷺ للمسلمين عن وجهته خلافًا لما كان يفعل في مثل هـذه الغزوات الكبيرة، ليتهيأ المسلون إلى الجهاد [البخاري]، سارع المؤمنون إلى مرافقة الرسول ﷺ ولم ينظروا إلى ما سيلاقونه من مشقة، ولم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا بالمدينة، فها هو علي بن أبي طالب لا يرضى أن يخلفه الرسول ﷺ في أهله، فيلحق بالرسول وهو نَازِلٌ بالجُرْفِ ويقول: «يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟» فقال له الرسول ﷺ: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»**. [متفق عليه].

وها هو أبو خيثمة الأنصاري وقد سارع إلى حسم الصراع الدائر في نفسه بين البقاء والخروج، ثم يؤثر الخروج رغبة في ما عند الله عز وجل، وفي ذلك يقول: «تخلَّفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطًا لي - بستانًا - فرأيت عَرِيْشًا قد رُشَّ بالماء، ورأيت زَوْجَتَيَّ فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السَّموم والحرور وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي ﷺ: **«كن أبا خيثمة»**، فجئت فدعا لي. [ابن حجر: الفتح، من رواية الطبراني؛ ابن إسحاق، مرسلًا؛ الواقدي].

ويروى أن أبا ذر عندما أبطأ عليه بعيره أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، وعندما نزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، رأى أحد المسلمين رجلًا يمشي وحده، فأخبر الرسول ﷺ فقال: **«كُنْ أبا ذر»**، فعندما وصل كان هو أبا ذر، فقال رسول الله ﷺ: **«رَحِمَ الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ»** [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي؛ البيهقي: الدلائل؛ ابن كثير: البداية، وحسنه].

وعندما أقام أبو ذر بالرَّبَذَة في عهد عثمان رضي الله عنه لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما بأن يغسلاه ويكفناه إذا مات، ثم يضعاه على قارعة الطريق ويطلبا الإعانة على دفنه من أول ركب يمر بهما، ففعلا، ويومها أقبل ابن مسعود رضي الله عنه في رهط من أهل العراق عُمَّارًا، وكادت إبلهم أن تطأ الجنازة، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر، صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فبكى ابن مسعود وقال: «صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك وتموت وحدك، وتبعث وحدك»، ثم نزل هو وأصحابه فدفنوه، ثم حدثهم حديثه، وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك. [الحاشية نفسها، حسن بطرقه].

وهذه معجزة من معجزات الرسول ﷺ الكثيرة في هذه الغزوة وغيرها، كما هو معلوم. وأفردنا لذلك فصلًا فيما بعد.

عدد الصحابة في جيش تبوك:

تباينت الروايات في ذلك. ففي رواية معقل عن كعب بن مالك، عند مسلم قال: «وغزا رسول الله ﷺ بناس كثير يزيدون على عشرة آلاف، ولا يجمعهم ديوان حافظ». وفي رواية أخرى له عنه: «المسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان». وقال ابن حجر [في الفتح]: وللحاكم في الإكليل من حديث معاذ: «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفًا، وبهذا العدد جزم ابن إسحاق». وروى الواقدي عن زيد بن ثابت أنهم كانوا ثلاثين ألفًا، وفي رواية أخرى له: «وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفًا ومن الخيل عشرة آلاف فرس»، وقد نقل عن أبي زُرعة الرازي أنهم كانوا أربعين ألفًا [الفتح]، وقال ابن حجر [الفتح] في تعليقه على بعض هذه الروايات: «فتحمل رواية معقل عن كعب على إرادة عدد الفرسان». وقال أبو زرعة الرازي: «وكانوا سبعين ألفًا». وجمع بعض الأئمة بين قوله وقول ابن إسحاق بأن أبا زرعة عد التابع والمتبوع، وابن إسحاق عد المتبوع فقط [تاريخ ابن أبي خيثمة].

والمشهور والراجح أن جيش تبوك كان ثلاثين ألفًا، وهو ما اتفق عليه أئمة المغـازي والسير: ابن إسحاق والواقـدي وابـن سـعد، ولـيس هنـاك تعـارض مـع مـا جـاء في الصحيح، والله أعلم.

المتخلفون عن غزوة تبوك:

لقد تخلف عن غزوة تبـوك، مـن غـير ذوي الأعـذار والمنـافقين، ثلاثـة مـن خيـار الصحابة، وهم: كَعْبُ بن مالك، ومُرَارَة بن الربيع العَمْرِي، وهِلَال بن أُمَيَّة الـواقِفِيُّ، فقد غلبهم التسويف والميل إلى الراحة. وروى كعب ﵁ قصته في هـذا التخلـف، في حديث طويل، رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وجاء فيه:

«كان من خبري أني لم أكن قـط أقـوى ولا أيسـر منـه حـين تخلفـت عنـه في تلـك الغزاة... وطفقت أغدو لكي أتجهز مع المسـلمين، فـأرجع ولم أقـض شـيئًا، فـأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد ولم أقض من جهازي شيئًا. ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو - أي فاتوا - وهممـت أن أرتحل فأدركهم. فيا ليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك، فكنـت إذا خرجـت في النـاس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموسًا بنفاق أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء.. ولما بلغني أنه توجه قـافلًا حضـرني همـي، فطفقـت أتذكر الكذب، وأقول بماذا سأخرج من سخطه غدًا؟!... واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، ولما قيـل إن رسـول الله ﷺ قـد أقبـل، زاح عنـي الباطـل وأجمعـت أن أَصْدُقَهُ، فجئته، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسُّم المُغْضَبِ، ثم قال: تعـال، فجئـت أمشـي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بـلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سـخطه بعـذر، ولقـد

أُعْطِيْتُ جَدَلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله. والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني يؤنبونني (أي يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين) فقلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية. فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرًا، لي فيهما أسوة... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أي الثلاثة - فَاجْتَنَبَنَا الناسُ وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرفها. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه أسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني. وبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أَنْبَاط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يَدُلُّنِي على كعب بن مالك؟ فَطَفِقَ الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غَسَّان، فإذا فيه: «أما بعد فإنه قد بَلَغَنِي أن صاحبك قد جفاك، ولم يَجْعَلْكَ الله في دار هوان ولا مَضْيَعَة، فالحق بنا نُوَاسِك»، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التَّنُّور فسجرته بها. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل

ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.. فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لي خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا، وعرفت أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشرونا، وذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ مبشرون.. ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله. فقلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت: يا رسول الله، إنما نجّاني الصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. وأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾[التوبة:١١٧-١١٩]... وكنا تَخَلَّفْنَا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾[التوبة:١١٨]، وليس الذي ذَكَرَ الله مما خُلِّفْنَا عن الغزو، إنما هو تَخْلِيفُهُ إيانا وإرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عمن حَلَفَ له واعتذر إليه فَقَبِلَ منه».

وجاء في حديث كعب هذا أن الذين تخلفوا عن هذه الغـزوة كـانوا بضـعة وثمانـين رجلًا، اعتذروا للرسول ﷺ عن تخلفهم فقبل منهم علانيـتهم وبـايعهم واسـتغفر لهـم ووكل سرائرهم إلى الله، ويتطابق هذا العدد مع ما ذكره الواقـدي، وقـد زاد الواقـدي، بأن المُعَذِّرِيْنَ من الأَعْرَابِ كانوا أيضًا اثنين وثمانين رجلًا من بني غِفـار وغـيرهم، وأن عبد الله بن أبي سلول ومن تابعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عددًا كثيرًا،

وروى هو وابن سعد وابن إسحاق أن ابن أبي خرج حتى وصل جبل ذُبَـاب – وفي رواية عند ثنية الوداع – بالمدينة ومعه حلفاؤه من اليهود والمنافقين، فكان يقـال: لـيس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين، فلما سـار الرسـول ﷺ تخلـف عنـه فـيمن تخلـف مـن المنافقين، وكل هذه لم يثبت بطرق صحيحة.

وكان من يتخلف يظن أن لا أحد يتفقده لكثرة أفراد الجيش، ولكـن الرسـول ﷺ تفقد وهو في طريقه إلى تبوك بعض من تخلف، فقد سأل أبـا رِهْـم كلثـوم بـن حصـين الغفاري عمن تخلف من بني غفار وأسلم [ابـن إسـحاق، حسـن لغـيره]، وعنـدما وصـل تبوك سأل عن كعب بن مالك. [البخاري].

المسلمون في تبوك:

قيل إن الرسول ﷺ خطب الناس خطبة طويلة في تبوك، قال فيهـا: **«أيهـا النـاس، أمـا بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخـير الملـل ملـة إبـراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكـر الله، وأحسـن القصـص هـذا القـرآن، وخـير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هـدي الأنبيـاء، وأشرف المـوت قتـل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهُدَى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب...»**. [أحمد؛ الأموال؛ البداية، وفي الروايات مطعن].

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على رأس سرية إلى أُكَيْدِر دُوْمَة الجندل فأخذوه، فأتوا به النبي ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية. [ابن إسحاق، يعتضد].

وعندما أخذوه كان يصيد البقر خارج حصنه، وهي الهيئة التي ذكرها الرسول ﷺ لخالد - أنهم سيجدونه عليها [ابن إسحاق، حسن]. وقد تعجب المسلمون من قَبَاء كان يلبسه أكيدر، واستلبه منه خالد وأرسله إلى النبي ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» [متفق عليه، ابن إسحاق؛ عروة؛ الترمذي؛ النسائي].

وفي الصحيح أن أكيدر أهدى رسول الله ﷺ حلة من حرير [متفق عليه]، فعجب الناس منها، فقال: «والذي نفس محمد بيده...» الحديث بمثل ما عند ابن إسحاق. والراجح أن حصول الرسول ﷺ على الحلة كان عن طريق الإهداء كما في الصحيح وليس عن طريق الاستلاب كما ذكر ابن إسحاق. ويؤيد ذلك ما رواه أبو يعلى بإسناد قوي، أنه لما قدم أكيدر، أخرج قباء من ديباج منسوجًا بالذهب، فرده النبي ﷺ عليه، ثم إنه وجد في نفسه من رد هديته فرجع به، فقال له النبي ﷺ: «**ادفعه إلى عمر**»، الحديث [ابن حجر: الفتح؛ الذهبي: المغازي]. وفي رواية عند البخاري أن الرسول ﷺ لم يعطها عمر ليلبسها، ولذا كساها عمر لأخ له كان بمكة مشركًا [البخاري]. وفي رواية عن علي أنه أهدي إلى النبي ﷺ حُلَّةً سِيراءَ فلبسها، فرأى الغضب في وجه النبي ﷺ، فشقها بين نسائه. [البخاري].

ويفهم من مجموع هذه الأحاديث أن الحلة التي أهديت إلى الرسول ﷺ ليست واحدة [البخاري]، وأن الرسول ﷺ والصحابة لم يكونوا يلبسون الحرير، لأن ذلك محرم بالأحاديث الصحيحة كما هو معروف.

وقيل إن الرسول ﷺ أرسل خالدًا إلى أكيدر في أربعمائة وعشرين فارسًا، وأن غنائمه كانت ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح. [عروة، مرسلًا].

روى البخاري أن الرسول ﷺ عندما كان بتبوك جاءته هدية ملك أَيْلَة، وهي بغلة بيضاء، وكساه بردًا، وصالحه على الجزية.

وأتاه أهل جَرْبَاء وأَذْرُح، فأعطوه الجزية، فكتب لهم كتابًا، فهو عندهم. [ابن إسحاق].

وفي ذات يوم من أيام تبوك تخلف رسول الله ﷺ عن صلاة الفجر لحاجة، وعندما انتهى إلى مكان المسلمين، كانوا قد قدموا عبد الرحمن بن عوف إمامًا لهم وشرعوا في الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ خلف ابن عوف، ثم أكمل صلاته. [مسلم؛ أحمد؛ أبو داود].

ويروى أن الرسول ﷺ أرسل دِحْيَة بن خَليفة الكَلبي إلى هرقل، وهو بتبوك، وأن هرقل أرسل التَّنُوخِي ليتعرف على بعض علامات نبوة محمد ﷺ. ولو ثبت هذا فيكون إرسال دحية للمرة الثانية.

وتوفي حين مقام الرسول ﷺ بتبوك ذو البِجَادَيْنِ [البجادين: مفردها البجاد، وهو الكساء الغليظ الجافي أو المِسْح – كساء من أشعر أسود. وذكر ابن هشام (٤/ ٢٣٤) سبب هذه التسمية، فقال: (لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد واحد ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريبًا منه شق بجاده باثنتين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقيل له: ذو البجادين لذلك)] عبد الله بن عبد نهم بن عفيف المزني، فنزل رسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه. فلما هيأه لشقه قال: «**اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه**». وقال الراوي – عبدالله بن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة». [ابن هشام، بسند مرسل جيد].

الرجوع إلى المدينة:

لم يلق الرسول ﷺ حربًا من الأعداء، فرجع إلى المدينة منتصرًا، بعد أن أقام بتبوك عشرين ليلة [ابن حبان: الموارد، صحيح]. وفي الطريق أتوا على الحِجْر من ديار ثَمُود، الذين غضب الله عليهم لعصيانهم أمره بعدم ذبح ناقة نبي الله صالح [متفق عليه]، وعندما سارع الناس إلى دخول مساكن أهل الحجر، نهاهم الرسول ﷺ [أحمد، حسن]، وقال لهم: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين**»، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي [متفق عليه]، وعندما نزلوا الحجر استقوا من آبارها وعجنوا من مائها العجين، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بطرح ذلك العجين للإبل وَيُهْرِيقوا ذلك الماء، وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة [متفق عليه].

وعندما اشتكى المسلمون إلى النبي ﷺ ما أصاب إبلهم من الإِجهاد، دعا الله أن ينشطها، فنشطت بهم حتى بلغوا المدينة [أحمد، حسن، الموارد].

وحاول جماعة من المنافقين الملثمين أن يطرحوا الرسول ﷺ عن راحلته من رأس عَقَبة بالطريق، في عَتَمةٍ من الليل، فشعر بمؤامرتهم، فأمر بإبعادهم عنه [أحمد، حسن].

فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لتلقيه [البخاري]، ومعهم النساء والولائد يقلن:

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع

وكان أول ما فعله الرسول ﷺ عند دخوله المدينة أن صلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة اعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم لله عز وجل. [متفق عليه]، وجاء الثلاثة المخلفون، وكان من خبرهم ما سبق ذكره.

وقفة مع بعض الآيات التي نزلت بمناسبة غزوة تبوك:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة - التوبـة - حـول موضـوع هـذه الغـزوة، نـزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج وهو مسافر، وبعض آخر منها بعد الرجـوع إلى المدينة. وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهـدين المخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين.

١ - قال تعـالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢ ﴾[التوبة:١٠٢].

قال الطبري [التفسير]: (وقد اختلف أهل التأويل في المعنـي بهـذه الآيـة، والسـبب الذي من أجله أنزلت فيه. فقال بعضهم: نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، منهم أبو لبابة، فربط سبعة مـنهم أنفسـهم إلى سـواري المسـجد عند مقدم النبي ﷺ من تبوك، توبة منهم من ذنـبهم... وقـال آخـرون: الـذين ربطـوا أنفسهم كانوا ثمانية... وقال آخرون: كانوا سبعة... وقال آخرون: بل نزلت في أبي لبابة بسبب تخلفه عن تبوك. وقال بعضهم: عنى بهذه الآيـة الأعـراب...)، وذكـر الطـبري المرويات فيمن قال بكل قول من الأقوال المذكورة... وكلها روايات لا تقوم بها الحجة حسب دراسة الدكتور السندي [الذهب] لها، ولذا قال الطبري [في التفسير]: (وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قول من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهـم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الـروم، حـين شـخص إلى تبوك، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة... قد تبين أن هذه الصـفة لم تكن إلا لجماعة فعلت ذلك، فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهـل التأويـل، إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك... مـنهم أبـو لبابـة، لإِجمـاع الحجـة مـن أهـل التأويل على ذلك).

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة:٦٥]

روى الطبري [بسند صحيح] عدة آثار في سبب نزول هذه الآية، منها أثر صحيح عن ابن عمر مضمونه أن رجلًا قال في مجلس في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن؛ قال ابن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بِحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تَنْكُبُهُ [تصيبه] الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**». واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الجد واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء ولا خلاف بين الأئمة في ذلك. [زاد المسير]. [وحَقَب: حبل يشد به الرحل على بطن البعير].

ويقول الله تعالى تعقيبًا على ما صدر من هذا الرجل: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٦].

ومما روي في تفسير هذه الآية أن الذي عُفِيَ عنه هو وحشي بن حمير الأشجعي، وذلك لأنه أنكر منهم بعض ما سمع. [الدر المنثور، من حديث ابن إسحاق وابن المنذر بسند حسن].

معجزات وقعت للرسول ﷺ في أحداث تبوك:

شكا الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي ﷺ ما برواحلهم من جهد، فأمر أن يمروا بها عليه عند مكان ضيق، فأخذ ينفخها ويقول: «اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس في البر والبحر»، فما بلغوا المدينة حتى جعلت تنازعهم أزمتها، فقال الراوي - فُضَالة بن عُبيد الأنصاري: «هذه دعوة النبي

ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليـابس، فلـما قـدمنا الشـام غزونـا غـزوة قبرص في البحر، فلـما رأينـا السـفن في البحـر ومـا يـدخل فيهـا عرفـت دعـوة النبـي ﷺ » [أحمد، حسن].

روى الواقدي عدة آثار عن معجزات وقعت للرسـول ﷺ ضـمن أحـداث غـزوة تبوك، ولكن كلها ضعيفة، لانفراده بها، مثل الحية التـي اعترضـت سـبيل المسـلمين في غزوة تبوك، ومعجزة نبع الماء من أصابعه، ومعجزة تكثير الطعام.

وكذلك روى السيوطي [في الخصائص الكبرى] آثارًا عن معجزات وقعـت للرسـول ﷺ وكلها ضعيفة، مثل نزول المطر بدعاء الرسول ﷺ في غزوة تبوك، ولقاء إلياس ﷺ بالرسول ﷺ في هذه الغزوة، وكل هذه المعجزات التي وردت عند الواقدي والسيوطي بأسانيد ضعيفة، وقع مثلها بأسانيد صحيحة، جاء ذكرها في ثنايا هـذا الكتـاب، اللهـم إلا قصة إلياس ﷺ والحية، فهي لم ترد من قبل بإسناد صـحيح أو سـقيم. وقـد أفردنـا فصلًا خاصًا للكلام عن معجزات النبي ﷺ.

الأحكام والفوائد والدروس المستنبطة من غزوة تبوك:

١- إن في صـلاة النبـي ﷺ خلـف عبـد الـرحمن بـن عـوف رضي الله عنه تكـريمًا لأحـد أصحابه، ودليلًا على جواز إمامة المفضول وصلاة الأفضل أو الفاضل خلفه.

٢- سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه الرسول ﷺ عن عمل يدخله الجنـة، وهـم في طريـق العودة من تبوك، فأجابه الرسول ﷺ بأن رأس هـذا الأمـر الشـهادة، وقوامـه الصـلاة والزكاة، وذروة سَنَامِه الجهاد [أحمد، حسن].

٣- كان الرسول ﷺ يجمع بـين صـلاتي الظهـر والعصــر، وبـين صـلاتي المغـرب والعشاء [الزرقاني: شرح الموطأ]. وأصبحت سنة لأصحاب الأعذار.

٤- سئل النبي ﷺ عن سترة المصلي، فأجاب بأنها مثل مُؤخرة الرحل [النسائي، صحيح].

٥- أقام ﷺ بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة [ابن حبان: الموارد، صحيح]. وبهذا استدل بعض العلماء على جواز القصر ما دام المرء في حالة سفر ولم ينو الإقامة، وانظر الفقرة ١٧ بعد قليل.

٦- قال ﷺ عن جِلْدِ الميتة: «**دِبَاغُها طهورها**»، وذلك عندما طلب ماء من بيت بتبوك فأتي له به في قربة من جلد فشرب. [أبو داود، حسن].

٧- أهدر الرسول ﷺ ثنية رجل عض يد رجل آخر فانتزعها بقوة ومعها الثنية. [متفق عليه].

٨- جواز الهجر أكثر من ثلاث ليالٍ لسبب شرعي، كما في أمر الرسول الله ﷺ بمقاطعة الذين خُلِّفوا لمدة خمسين ليلة.

٩- إن من يمر بديار المغضوب عليهم والمعذبين، لا ينبغي له أن يدخلها، [إلا لضرورة]، ولا أن يقيم بها، بل عليه أن يسرع، ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا، كما فعل الرسول ﷺ وأمر به عندما مر بديار ثمود بالحجر، وكما فعل في وادي محسر بين منى وعرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله ﷻ فيه الفيل وأصحابه. [الزاد].

١٠- تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه ليتأهبوا له، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة، كما فعل الرسول ﷺ في أمر الإِعلام بوجهته حين عزم على غزوة تبوك. [نفسه].

١١- إذا استنفر الإِمام الناس للجهاد لزمهم النفير جميعًا، ولا يشترط في وجوب ذلك تعيين كل واحد منهم بعينه، وهو أحد المواضع الثلاثة التي يصبح فيها الجهاد فرض عين، والثاني: إذا حضر العدو البلد، والثالث: إذا حضر بين الصفين. [أي حين لقاء العدو].

١٢- وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذه إحدى روايتي أحمد، قال ابن القيم [الزاد]: (وهو الصواب الذي لا ريب فيه).

١٣- إن في قول الرسول ﷺ لعثمان رضي الله عنه عندما رأى سخاء بذله: «**ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم**»، منقبة كبرى لعثمان رضي الله عنه، تضاف إلى مناقبه الأخرى الكثيرة، والتي أعظمها البشرى له بالجنة.

١٤- إن العاجز عن الجهاد والذي لا حرج عليه إذا تخلف عنه هو الذي يبذل جهده ويتحقق عجزه، كما في حالة الذين جاءوا يسألون الحملان فلم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه، فرجعوا يبكون لما فاتهم من شرف وأجر الجهاد.

١٥- مشروعية استخلاف الإمام، إذا سافر، رجلًا من الرعية على الضعفاء والنساء والذرية، كما في حالة علي رضي الله عنه، ويكون نائبه من المجاهدين، وهي خلافة خاصة، أما الاستخلاف العام والخاص بالشؤون الأخرى فكان لمحمد بن مسلمة. [نفسه].

١٦- لا يجوز شرب ماء آبار ثمود ولا الطبخ منه ولا العجن به، ولا الطهارة به، ويجوز أن يسقى منه البهائم، إلا ما كان من بئر الناقة، فيجوز الاستفادة من مائها في كل شيء. [نفسه].

١٧- أقام النبي ﷺ عشرين يومًا يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواء طالت المدة أم قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع، وكان ذلك عمل بعض أئمة السلف، مثل سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأنس ابن مالك وعبد الرحمن بن سَمُرة، وهو الصواب كما قال ابن القيم [في الزاد].

١٨- إن من مراتب الجهاد الأربعة: الجهاد بالقلب، كما في حال الذين حبسهم العذر، وقال عنهم الرسول ﷺ: «**إن بالمدينة أقوامًا... الحديث**» والمراتب الأخرى:

اللسان، والمـال، والبـدن، كـما في الحـديث: جاهـدوا المشــركين بألسـنتكم وقلـوبكم وأموالكم» [أبو داود؛ أحمد، النسائي؛ الدارمي؛ الحاكم (صحيح)؛ ابن حبان].

١٩- جواز إحراق وهدم أمكنة المعصية، كما فعل الرسول ﷺ بمسجد الضِّرَار.

٢٠- جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله عز وجل ورسوله ﷺ، كما في رواية كعب لقصة تخلفه عن غزوة تبوك.

٢١- جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن ذلك على سـبيل الفخـر والترفع، كما فعل كعب رضي الله عنه .

٢٢- إن بيعة العقبة الكبرى كانت من أفضـل مشـاهد الصـحابة رضي الله عنهم ، حتـى إن كعبًا رضي الله عنه كان لا يراها دون مشهد بدر.

٢٣- لا ينبغي للإمام أو المطاع أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يـذكره ليراجع الطاعة ويتوب، كما فعل الرسول ﷺ عندما سأل عن كعب وغيره بتبوك.

٢٤- إن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإِسـلام مـن المنـافقين، ويكـل سريرته إلى الله عز وجل، ويجري عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره، كـما فعـل الرسول ﷺ مع الذين جاؤوه يعتذرون له عن تخلفهم.

٢٥- إن في سجود كعب حين سمع صوت المبشر دليلًا ظاهرًا على أن تلـك كانـت عادة الصحابة، وهو سجود الشكر عند حدوث النعم المتجددة، والنقم المندفعـة، وقـد سجد أبو بكر رضي الله عنه لما جاءه خبر مقتل مسيلمة الكذاب [البيهقي: السنن]، وسـجد علـي عندما وجد ذا الثُّدَيَّةِ أو المُخْدَجَ مقتولًا في الخوارج [أحمد، صـحيح] وهم في هذا يقتدون بالرسول ﷺ. فقد سجد رسول الله ﷺ عدة مرات لأحداث سارة، وقـال أبـو بكْـرَة: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خرَّ لله ساجدًا» [أبو داود، صحيح؛ الترمـذي، حسـن؛

ابن ماجه، حسـن]، ومن أمثلة ذلك سجوده عندما أتاه خبر إسلام همدان على يد علي بـن أبي طالب رضي الله عنه . [البخاري].

٢٦- استحباب الصدقة عند التوبة بما قُدِرَ عليه من المال، كما جاء في موقف كعب رضي الله عنه وحواره مع الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أراد التصـدق بكـل مالـه، ولكـن الرسـول صلى الله عليه وسلم استحب له الثلث، فأمسك فقط سهمه الذي بخيبر. [أبو داود، صحيح].

٢٧- مشروعية أخذ الجزيـة مـن أهـل الكتـاب، وأنهـم يحـرزون بـذلك دمـاءهم وأموالهم، فقد رأيت أن الروم اختفوا وتفرقوا خوفًا من مواجهة رسـول الله صلى الله عليه وسلم حيـنما وصل تبوك، وجاءه نصارى العرب فصالحوه على الجزية.

٢٨- إن موقف كعب رضي الله عنه من رسالة ملك غسان وتعليقه على طلبه، فيـه صـورة رائعة لما ينبغي أن يكون عليه إيمان المسلم بربه تعالى، وإن الابتلاء لا بد أن يكشف عـن المزيد من الإيمان وشدة الإخلاص.

٢٩- لقد وطدت هذه الغزوة سلطان الإسلام في شمالي شبه الجزيرة العربية، ومهدت لفتوح الشام التي استعد لها الرسول صلى الله عليه وسلم بإعداد جيش أسـامة رضي الله عنه قبيـل وفاتـه، فأنفـذه أبو بكر، ثم أتبعه أبو بكر بجيوش الفتح الأخرى التي انساحت في بلاد الشـام والعـراق، وكانت بداية تحرير شعوب تلك المناطق من عبودية القيصرية والكسروية.